فلسفة سبنسر

ابنا في الجزء الماضي ماهية العلوم ونسبة الفلسفة اليها واهتمام سبنسر بجعل الفلسفة علماً شاملاً للعلوم كلها اي بجعلها علم العلوم كما قال لنا احد علماء مصر بعد ان قرأ ما كتبناهُ في الجزء الماضي

ويظهر مما كتبهُ سبنسر عن نفسهِ ومما كتبهُ غيرهُ عنهُ انهُ لم يقصد بادئ بدء البحث عن فلسفة الاشياء اي عن الاصول العامَّة التي تُرَدُّ اليها حوادث الكون بل كان يبحث عن نسبة الانسان الى المملكة ونحو ذلك من المباحث الاجتماعية فاقتيد استطراداً الى البحث عن ارتقاء الانسان شخصيًّا وعن ارتقاء جماعاتهِ اي عن ارتقائهِ بنوع خاص وبنوع عام . ويظهر من الرسائل الاولى التي كتبها عن "مدار الحكومة" انهُ رأى من اول الامر ان اجتماع الناس قبائل وممالك تابع لناموس طبيعي فليس هو مما يحدث بفعل فاعل وانما هو نمو طبيعي يتدرَّج تبعاً لنواميس الطبيعة . ورأى ما رآهُ الفلاسفة الالمانيون قبلهُ وهو ان في الحياة ميلاً الى التفرُّد اي ان الجسم غير الحي لا يكون متفرداً بل يكون مثل غيرهِ من نوعهِ فقطعة الرخام مثل غيرها من قطع الرخام وشذرة الذهب مثل غيرها من شذور الذهب واما الجسم الحي سواء كان نباتاً او حيواناً فلهُ ذاتية متفرِّد بها ولذلك لا يماثل حيوانٌ حيواناً آخر في كل شيء ولا نبات نباتاً آخر بل كل من افراد الحيوان والنبات متفرِّد بنفسهِ . وكلما زاد الحيُّ ارتقاء زاد تفرُّدهُ ظهوراً فكان التفرُّد غاية كل ارتقاء في الموجودات

ثم رأى لدى امعان النظر ان خاصة التفرُّد هذهِ تحول الى فعلين متصلين الواحد يميل الى فصل الفرد عن غيرهِ من الافراد والثاني الى زيادة تركيبهِ . والفعل الذي نسميهِ ارتقاء يشتمل على امرين الواحد اختصاص عام مع ازدياد في التركيب والثاني استقلال متبادل بين الاجزاء المتفرِّدة من الجسم الحي

فالارتقاء او النشوء كما يسمَّى الآن علمهُ سبنسر وعرَّفهُ بانهُ فعل مزدوج يقوم بالتخصيص مع ما ينتج عنهُ من زيادة التركيب والتعميم مع ما ينتج عنهُ من زيادة الوحدة . وكان اكثر بحثهِ اولاً في التخصيص الطارىء على الموجودات وحاول في مقالتهِ عن الارتقاء وناموسهِ وسببهِ ان يتوسع فيهِ ويعلل بهِ الارتقاء العام جارياً في ذلك مجرى العالم بير الذي قال ان سلسلة التغيرات التي تتغيرها البزرة حتى تصير شجرةً والبيضة حتى تصير حيواناً انما هي ارتقاء من التماثل في البناء الى التباين فيهِ . فاتخذ سبنسر ذلك قاعدة لبحثهِ وقال انهُ قاعدة لكل ارتقاء

اي ان الارتقاء في انواع النبات والحيوان والاخلاق والعادات والعلوم والفنون وكل مايتصل اليهِ بحث الانسان مدارهُ كلهُ على الانتقال من المتماثلات الى المتباينات . فالجماد دقائقهُ كلها متماثلة — ذرة الهواء مثل ذرة الهواء ونقطة الماء مثل نقطة الماء وقطعة الذهب مثل قطعة الذهب ثم يظهر الاختلاف في النبات ويكون قليلاً في انواعهِ الدنيا فتتألف اعضائهُ من حويصلات متماثلة ثم يزيد في انواعهِ العليا فيصير فيهِ ورق وزهر وثمر ويكون في الزهر كاس وتاج واعضاء تذكير واعضاء تأنيث وفي الثمر قشر ولب وبزر وهلم جرًّا ولكن تبقى مزاياهُ في كل اجزائهِ تقريباً على السواء فاذا قطعت غصناً منهُ لم يمت بقطعهِ واذا غرستهُ عاش ونما وصار شجرة مثل الشجرة التي قُطع منها وكذلك الحيوانات الدنيا كالاسفنج فانها مثل النباتات من هذا القبيل متماثلة الاجزاء وقوة النمو والتولد قائمة في كل جزء منها بخلاف الحيوانات المرتقية فانها انقسمت الى ذكور واناث جرياً على ناموس تقسيم الاعمال لزيادة اتقانها ولكل عضو من اعضائها شكل خاص بهِ ووظيفة يقوم بها فالقلب لايشبه المعدة ولا يفعل فعلها واليد لا تشبه الدماغ ولا تفعل فعلهُ واذا قُطع عضوٌ من هذه الاعضاء فقد حياتهُ سريعاً

وهذا شأن العادات والعلوم والفنون وسائر اعمال الناس وتراتيبهم مثال ذلك اعداد الطعام وعمل الثياب فقد كان الرجل وزوجتهُ يحرثان الارض ويزرعان الحنطة ويحصدانها ويدرسانها ويطحنانها ويخبزانها ويرعيان الغنم ويجزان صوفها ويغزلانهِ ويحيكانهِ ويخيطان الثياب منهُ وكان غيرهما يفعل فعلهما فتوزعت الاعمال بازدياد العمران فصار لكل من الحرث والزرع والحصاد والدراسة والطحن والعجن والخبز اناس يعملونها وقس على ذلك سائر الاعمال

وكان ابو العائلة حاكمها وقاضيها وكاهنها وطبيبها فتوزعت هذهِ الاعمال على اناس مختلفين استقلَّ كل منهم بعمل دون غيرهِ ولا يزال التخصيص يقوم مقام التعميم في هذهِ الفروع فقد كان الطبيب الواحد يتعاطى الطب والجراحة ومعالجة العيون والاذان وامراض النساء والاطفال فصار لكل من ذلك طبيب خاص بهِ . وهذا هو المراد بالانتقال من التعميم الى التخصيص في الطبيعة كلها ومن التماثل الى التباين

ولما رأى سبنسر ذلك قال انهُ اكتشف ناموس الارتقاء لكنهُ رأى لدى امعان النظر ان الانتقال من التماثل الى التباين لا يشمل كل اساليب الارتقاء بل يشمل بعضها او اظهرها وان بعض ما يشملهُ ليس من الارتقاء في شيء بل هو انحطاط وانحلال كتولد السرطان في الجسم وحدوث الثورة . . . وبعد بحث طويل في هذا الصدد عرَّف الارتقاء تعريفهُ المشهور وهو انهُ "تجمُّع في المادة يصاحبهُ تغرُّق في القوَّة تنتقل بهِ المادة من شكل متماثل

الاجزاء غير محدود ولا متصل الى شكل متباين الاجزاء محدود متصل ويتغير شكل القوة التي فيه في غضون ذلك تغيراً موازياً له "

لكن الفلسفة لا تكتفي بالامور الاستقرائية بل تتطلب القياس اي الوصول الى المقدمات اليقينية والتوصل منها الى النتائج على طريق القياس وهو الفلسفة التركيبية التي وضعها وقضى العمر في بسطها وتطبيقها على الموجودات بعد ان استخرج المقدمات الاولى او المبادئ الاولى التي تبنى عليها فصار بها تاريخ الكون خبراً معقولاً جارياً على مقتضى العقل بعد ان كان فروضاً لا دليل على صحتها . ومن هذه المبادىء الاولى ان الشيء المحدود المتماثل الاجزاء لا يثبت على حاله لان اجزاءه لا تكون معرّضة للقوى الخارجة عنه على حدٍّ سوى . فالجسم الذي تقع عليه القوة يقسّمها وينوّعها والتقسيم يميل الى فصل الاجزاء المتخالفة وجمع الاجزاء المتماثلة فيزيد تنويع الاشياء . وهذه الحقائق اي عدم ثبوت الاشياء المتماثلة وتنويع الاشياء وتقسيمها فروع من ناموس اصلي ونتائج من ثبوت القوة في شكليها المادة والحركة وهنا تلتقي حلقة القياس بحلقة الاستقراء

وكتب سبنسر الى الاستاذ هدسن كتاباً شرح له فيه كيفية تدرجه في الفلسفة التركيبية (او القياسية لانها مبنية على القياس) فلخصه الاستاذ هدسن فقال :

ان جرثومة فلسفته ظهرت اولاً في كتابه الانتظام الاجتماعي حيث ذكر في الفصل المعنون بامور عامة حقيقة بيولوجية مفادها ان الانواع الدنيا من الحيوان مؤلفة اجسامها من اجزاء متماثلة لا يتوقف بعضها على بعض واما الانواع العليا فاجسامها مؤلفة من اعضاء مختلفة يتوقف بعضها على البعض الآخر وقد قال ان هذا كان نتيجة استقرائية وصلت اليها في غضون دروسي البيولوجية ويخال لي الآن ان اكثر ذلك كان وانا اسمع خطب الاستاذ اوين على هيأكل الحيوانات الفقرية . وهذا الامر يصدق على جماعات الناس فانها تبتدىء باجزاء متماثلة لا يتوقف بعضها على بعض . ووصل الى هذه النتيجة بالاستقراء ايضاً ثم من الجمع بين هاتين النتيجتين استنتج نتيجة ثالثة وهي " ان الفرد من افراد الاحياء والفرد من افراد الجماعات خاضعان لناموس واحد على حدٍّ سوى "

فادنى انواع الحيوانات اجسام هلامية متماثلة الاجزاء لا يتوقف جزء منها على الجزء الآخر لانه ينفصل فيبقى حياً وتبقى فيه صفات الجسم كله كما تنفصل نقطة الماء من بركة وتكون فيها كل خواص ماء البركة . واعلى انواع الحيوانات الانسان اجزاؤه ليست غير متماثلة بل متفردة لكل جزء منها صورة خاصة به اليد غير الرجل والقلب غير الطحال ولكنها غير مستقلة بل

يتوقف بعضها على بعض اليد لا تعيش وحدها والقلب لا يعيش وحده . وهكذا جماعات الناس كانت في اول عهدها والناس على الفطرة مؤلفة من افراد متماثلين كل واحد مثل الآخر من حيث نسبتهُ الى المجتمع ولا يتوقف احدهم على الآخر في معيشتهِ وسائر احوالهِ فيصنع طعامهُ ويبني بيتهُ و يدافع عن نفسهِ يفعل ذلك كلهُ وحدهُ ثم تولدت الفروق بين افراد المجتمع فصار بعضهم حكامًا وبعضهم جنودًا وبعضهم حرَّاثًا وبعضهم صنَّاعًا وصار بعضهم يتوقف على البعض فلا غنى للملك عن الجنود والحرَّاث والصنَّاع ولا غنى للصناع عن الملوك والجنود والحرَّاث وهلمَّ جرًّا . وقد اتصل سبنسر الى هذه النتائج قبل سنة ١٨٥٠ ثم لما اطلع بعد سنتين على الناموس الذي وصل اليهِ فون بير وهو ان الحياة ميل من التماثل الى التباين رأى في هذا اللفظ المختصر ما يعبر عن مرادهِ كلهِ فاعتمد عليهِ

ثم رأى ان هذا الناموس عام يشمل كل الموجودات فقال في نفسهِ ماهو سبب ذلك ولدى امعان النظر رأى ان كل الاسباب يمكن ردها الى سبب واحد وهو بقاء القوة اي ان القوة لا تتلاشى مهما تغيرت صورها وكيفياتها فابتدأ بالاستقراء وانتهى باصول او اوليات تبنى الاحكام عليها بالقياس المنطقي . وقال في هذا الصدد «اني كنت لا اكتفي بنتيجة وصلت اليها بالاستقراء مالم اصل فيها الى المبادىء الاولى ولا اكتفي بالمبادىء الاولى حتى احققها بحوادث الاستقراء» . وهذا معنى قولنا ان فلسفتهُ جمعت بين القياس والاستقراء . ولما وصل الى المبادىء الاولى وضع فيها كتابًا خاصًّا سماهُ المبادئ الاولى شرع في تأليفهِ سنة ١٨٦٠ ونشر حينئذٍ منشورًا اعرب فيهِ عن عزمهِ على اصدار سلسلة من الكتب تتضمن خلاصة ما وصل اليهِ الناس من الحقائق العلمية طبيعية كانت او عقلية لكي يبين الرابطة الفلسفية التي بينها و يبني عليها فلسفة جديدة

وكتاب المبادىء الاولى قسمان موضوع القسم الاول ما لا يُعرف وفيهِ فصول عن الدين والعلم وكون المعارف كلها نسبية . وموضوع القسم الثاني ما يعرف وهو اربعة اخماس الكتاب وفيهِ فصول كثيرة عن مبادىء الفلسفة وما يتعلق بها من البحث عن المكان والزمان والمادة والحركة والقوة وخواصها كلها حتى تصل الى المبادىء الاولى وفيهِ فصول مسهبة عن النشوء او الارتقاء وتواميسهِ ومدلولاتهِ . والغرض من ذلك كلهِ الوصول الى المبادىء الاولى في ما يقع تحت البحث فلما وصل اليها بنى عليها فلسفتهُ التركيبية ووضع فيها كتبًا كثيرة . وقد لا يتضح مرادنا الآ بايراد فصول من كتبهِ ونفعل ذلك في الاجزاء التالية